البنى الفكرية والفنية في رواية
" الطريق الوحيد"
للكاتب التركي عزيز نيسين

بقلم :

د/ احمد هلال محمد بني عيسى

جامعة البلقاء التطبيقية - كلية عجلون الجامعية

قسم العلوم الأساسية

د/ منصور وهيب منصور العمري

مؤسسة الاذاعة والتلفزيون – الأردن

د/ نواف عبدالكريم إبراهيم غرايبة

جامعة البلقاء التطبيقية - كلية عجلون الجامعية

قسم العلوم الأساسية

الملخص

يقوم هذا البحث على دراسة رواية "الطريق الوحيد" للكاتب التركي "عزيز نيسين". فيقف على البنى المختلفة التي تضمنتها الرواية، من بنى سياسية واجتماعية وفلسفية. كما يبحث في الجوانب الفنية للرواية بشكل عام، وموضوع السخرية بشكل خاص، لأنها _السخرية_ شكلت أسلوبا وملمحاً بارزاً في بناء هذه الرواية وروايات نيسين بشكل عام، بل إن هي "رواية ساخرة". والكتابة الساخرة نمط من الكتابة له أسلوبه الفني الخاص، ودلالاته الفكرية الواسعة معا. كما يتطرق البحث للحديث عن شخصية "باشا زادة"، الشخصية الرئيسية في الرواية، ثم تحليلها ودراستها من الداخل استنادا إلى التحليل السيكولوجي، ووضعها داخل المجتمع الذي أفرزها، وبيان مدى التأثر والتأثير بينهما.

حياة عزيز نيسين وأعماله

ولد عزيز نيسين في جزيرة "هيبلي" إحدى الجزر الغربية من استانبول الواقعة في بحر مرمره، وكانت ولادته في العشرين من كانون الأول عام ١٩١٥. أسمه الحقيقي محمد نصرت عزيز نيسين. أنهى دراسته الابتدائية في مدرستين هما ابتدائية سليمان القانوني، ودار الشفقة. وتابع دراسته في الثانوية العسكرية "ديلوللي" وتخرج منهما عام ١٩٣٥. ثم في الكلية العسكرية لمدة عامين، وفي أثناء متابعته للدراسة في الكلية العسكرية درس في كلية الفنون الجميلة لمدة عامين، ثم بدأ الكتابة وراح ينظم الشعر وينشرها باسم "وديعة نيسين" الاسم المستعار بين عامي(١٩٣٩– ١٩٤٣).

ترك نيسين الجيش عام ١٩٤٤ وهو برتبة ملازم أول. واشتغل في عدد من المهن ليكسب قوت يومه وعمل بقالاً لفترة من الزمن، وفي الوقت نفسه كان يزود عدداً من المجلات بالمقالات والقصص وفي تلك الأثناء بدأ عمله صحفياً، وتنقل في عدد من الصحف والمجلات. تعرض للاعتقال بسبب المقالات والمواد التي كان يكتبها في تلك المجلات والصحف وحوكم وعوقب بالسجن.

وحين أخفق في العثور على عمل في الصحافة افتتح مكتبة في استانبول الأوروبية، وذلك عام ١٩٥١، ثم ترك المكتبة وفتح أستوديو للتصوير. وعلى الرغم من تمكنه من العودة إلى عالم الصحافة والنشر في عام (١٩٥٤) فأنه لم يكن قادراً على استخدام أسمه الصريح فاضطره ذلك إلى التوقيع بجملة من الأسماء

المستعارة، حيث استخدم في حياته أكثر من مئتي اسم مستعار. أسس عزيز نيسين مع صباح الدين علي "ماركو باشا" وهي أول صحفية ساخرة في العصر الحديث في تركيا، وكلما أُغلقت أعاد فتحها باسم جديد. ثم عمل داراً للنشر مع كمال طاهر التي احترقت عام ١٩٦٣ ، وفيها مئة وعشرة آلاف كتاب.

ونجد في أعمال الكاتب عزيز نيسين أنه قد تناول شريحة اجتماعية واسعة في تركيا من خلال النماذج الشخصية. ويقول عن أعماله: "موضوعاتي كلها استقيتها من الحياة التي عشتها وأعيشها، هناك أوضاع إنسانية لا يمكنك المرور عليها المرور الكرام: أوجاع وآلام، مشاكل، صخب الحياة، ظلم وتخلف، أمراض عديدة. ودوري ككاتب هو تكثيف هذه الحالات والتفاعل معها وصبها في قوالب أدبية"، علها تبقى في وجدان القارئ كي توجهه نحو خلاصه وخلاص غيرة من اليأس. فهو يقوم بمهاجمة جميع الظواهر السلبية للحياة من خلال الفهم السليم والنظر الثاقب اللذين يدعوانه إلى رؤية التناقض في الحياة . كما تساعده عقيدته في الحياة على تنمية موهبته بهدف التقاط الظاهرة الرئيسية في الحياة وتأطير قوانينها.

مرّ عزيز نيسين بمراحل أدبية هي:

- **الأولى ١٩٤٤ – ١٩٤٦: البحث عن الذات. إذ جرب كتابة العديد من الأنماط: القصة الواقعية، القصائد الشعرية الرومانسية، المقالات.**
- **الثانية ١٩٤٦ – ١٩٦٠: اتجه كلياً نحو القصة الساخرة التي تنتقد الأوضاع الاجتماعية في تركيا وسياستها.**
- **الثالثة تبدأ مع بداية الانقلاب العسكري عام ١٩٦٠: وقد تم إطلاق الحريات ووجد أن مقالاته لا تجد طموحاته فأتجه نحو التحليلات الفكرية من خلال الكتابات الجدية والساخرة وبدأت كتاباته تكسب شهرة عالمية حيث تُرجمت إلى لغات عديدة.**

ترك نيسين الكثير من المؤلفات في الرواية والقصة والمسرحيات والدراسات وغيرها. فمن الروايات: الحمار الميت ١٩٥٧؛ الهداف١٩٥٧؛ الفهلوي ١٩٦١ ؛ بتوش الحلوة ١٩٧٤ ؛ السرنامة (وقائع احتفال رسمي)١٩٧٦؛ يحيى يعيش ولا يحيى ١٩٧٧؛ الطريق الوحيد ١٩٧٨. ومن المسرحيات افعل شيئاً أو مِت ١٩٥٩؛ هل تأتون لحظة ١٩٥٨ ؛ وحش طوروس ١٩٦٣؛ حرب المصفرين وماسحي الجوخ ١٩٦٨؛ ثلاث مسرحيات أراجوزية ١٩٦٩؛ امسك يدي يا روفني ١٩٧٠. ومن القصة القصيرة: في إحدى الدول ١٩٥٣؛ مجنون على السطح ١٩٥٦؛ نصيب الحي ١٩٥٧ ؛ أي حزب سيفوز ١٩٥٧؛ آه منّا نحن الحمير١٩٦٠؛ كيف ينقلب الكرسي ١٩٦١؛ غاز الشرف الأخضر ١٩٦٥. ومن المذكرات والخواطر: في قسم الشرطة؛ مجانيني؛ مذكرات منفي. وكانت وفاته في السادس من تموز ١٩٩٥ إثر إصابته بالسكتة القلبية.

تحليل الرواية

أقام الكاتب عزيز نيسين روايته استناداً على شخصية تعرف عليها عام ١٩٥١ في سجن "باشا قبصي"، وقد كان محتالاً ذا سوابق، وعمره يزيد على الستين. فشكل هذا للكاتب المصدر الحسي لاستلهام شخصية "باشا زادة" في الرواية. كان "زادة" حكّاء ماهرا وكان يعمل على سرد مغامراته بشيء من التلفيق وفي بعض الأحيان يصدق ما لفقه، فأصبح التلفيق جزءا من حياته كما يقول الكاتب في مدخل الرواية.

تنقسم الرواية إلى عدة مشاهد عددها سبعة عشر مشهدا روائيا. وقد كان "باشا زادة"، من الناحية الفنية، هو الراوي في أحد عشر مشهدا منها، فأتاح ذلك لهذه الشخصية الحديث عن نفسها وتصوير حركاتها وانفعالاتها وبيان محتواها الفكري. وأما المشاهد الستة الباقية فقد تولى راوٍ آخر (الذي يتماهى بشخصية الكاتب) عملية السرد فيها، ويقوم هذا الراوي بضبط عملية السرد من خلال إطلالته بعد كل مشهدين أو ثلاثة مشاهد ترويها شخصية "باشا زادة".

ويعد كل مشهد من المشاهد التي رواها "زادة" مستقلا عن الآخر من ناحية: الزمان، المكان، الشخصيات، الأحداث، وكذلك شخصيته هو، حيث كانت تتواءم مع كل مشهد من هذه المشاهد فتكتسب اسما جديدا، ومعان وقيما جديدة. فأتاح هذا الأسلوب المشهدي في السرد قدرة واسعة على الانتقال من مكان إلى آخر، وفي كل مشهد قصة مختلفة، وشخوص مختلفون، وطبقة اجتماعية مختلفة، ورؤية مختلفة.

لقد تنقل "زادة" في كل أنحاء تركيا، بدءا من اسطنبول حتى الأناضول، فأعطى ذلك التنوع للكاتب _بإحساسه العميق_ رؤية شمولية

لمعاينة كافة طبقات المجتمع التركي، والكشف عن الأفكار والممارسات الاجتماعية الخاطئة، التي يرى الكاتب أنها مرض يجب إزالته. فالأديب يبدع عمله الفني مستندا على رؤية شمولية متكاملة للواقع، يرى فيها الواقع في حركة نامية متطورة، ويدرك أن حركة الواقع نابعة من القوى المتصارعة والمتناقضة، وأن سبب ما يحدث للمجتمع كامن في أسباب إنسانية، وأن الأديب جزء من هذا المجتمع لا يمكنه مواجهة مشاكله وحلها جذريا إلا بالتصدي للعوامل الاجتماعية المسؤولة عن وقوعه ووقوع الآخرين في هذه المشاكل، وقد يستطيع الأديب الهرب من مشاكله أو محاولة التظاهر بالتغلب عليها لكنه لا يستطيع مواجهتها مواجهة حقيقية إلا بالكشف عن جذورها الاجتماعية.

البنى الفلسفية والسياسية والاجتماعية في الرواية

لقد تضمنت رواية "الطريق الوحيد" العديد من الأفكار الفلسفية الوجودية والسياسية والاجتماعية. بعضها كان صريحا ظاهرا وبعضها الآخر احتاج إلى كشف وتحليل. فالرؤية الفلسفية الوجودية التي طرحتها الرواية تمثلت في الإيمان المطلق بأن حياة الإنسان "لعب في يد المصادفات"، وأن الأحداث التي تجري في حياته مهما كانت صغيرة فأن لها تأثيراً كبيراً على تحديد مساره، إما إلى هذا الطريق أو إلى ذاك أو إلى آخر ثالث ورابع وهكذا. يقول "باشا زادة" (بطل الرواية): "إن أتفه الأشياء وأقل الأحداث أهمية يمكن أن تغير حياة إنسان بشكل غير متوقع، إن حياتنا التي تغير اتجاهها فجأة. تحرفنا عن طريقنا أيضاً".

ويمضي " باشا زادة " بطل الرواية في ذكر أول حادثة قد غيرت مسار حياته منذ كان في المدرسة الثانوية العسكرية. يقول: "ولكن قصة حلوى المعلل حقيقية ووجهت مسار حياتي إلى الطريق المعاكس". وبعدها يروي القصة وينتهي فيها بعدد الكثير من الاحتمالات اللانهائية التي كان من الممكن أن يفعلها فهو يقول: "نعم، لو أنني في تلك الليلة قد مررت من الممرات التي أمر فيها كل يوم [...] لو أنني انحرفت إلى ذلك الممر لكي لا يراني أحد إذ يندر يمرّ شخص من هناك، لما كنت هنا الآن سجيناً، صاحب سوابق، ممكن أن أكون الآن جنرالاً [...] من أين لي معرفة أن انحرافي عن الدرج الذي أصعد منه كل يوم سيحرف مجرى حياتي".

لقد سيطرت هذه الفكرة في الرواية من الصفحات الأولى إلى نهايتها، فهي تعني أن الحياة قائمة على العبث، وأن الإنسان لا حرية له في تقرير مصيره أو اختيار حياته التي يريد، فهو لا يساوي شيئاً أمام

الأحداث والظروف والشخوص التي تحيط به وتقرر مصيره. وكأنه مسكون بهاجس الخوف من الزمن . ذلك الشيء الذي يسير بشكل خطي مستقيم ، لا يسمح لأحد ما بالرجوع إلى ما كان في السابق. يقول زادة لنفكر باحتمالات خمس وقائع من حياتنا وإلى أي عدد مخيف ، ولا نهائي ستزداد. أنا في هذا العمر لماذا في السجن ؟ وليس جنرالا أو سياسا أو تاجراً [...] كان الممكن لي في يوم نحس ألا اشتري مناوبة المطبخ من أحد أصدقائي . كان من الممكن ألا يوزع في ذلك اليوم المعلل". ويقول: "ولكن هل هو ذنبي أنْ أكل الباشا كل هذه الكمية من المعلل".

ويوضح "باشا زادة" أن حياته قد تغيرت بسبب حدث بسيط أدى به إلى السجن سنين طويلة. وتتكرر الفكرة نفسها نهاية الرواية حين يتحوّل إلى شخصية أخرى بذات السبب البسيط. يقول: "لولا أن السيارة صدمتني أثناء عبوري الطريق، واستندت إلى الجدار لكي أصحو لن أرى جمال الأونطة. المصادفة جعلت مني إنساناً آخر. جمال الطن طاش".

وأما البنية السياسية التي طرحتها الرواية فإنها تتجلى في نظرته للسلطة ونقيضها. فيعتقد أن الأجرام والنظام شيء طبيعي في حياة المجتمع. يقول عن إحدى الشخصيات: "هل يسمى المكان مكاناً دون مجرمين [...] وهل يسمى البلد بلداً دون درك لكل بلد دركه ومجرموه". وعلى ما يبدو، إن الأفكار التي طرحتها الرواية قد بدت نقيضاً للسلطة السياسية القائمة آنذاك. وقد بدا ذلك واضحاً من خلال عدة مواقف وأحداثٍ، فنراه مثلاً يهزأ من الضابط الذي كان يرتجف عندما هاجم اللصوص ركاب الحافلة وسرقوهم وكان هذا الضابط معهم. كما تذكر الرواية كيفية تعامل السلطة مع المجرمين الخارجين على القانون من قطاع الطرق واللصوص حيث عقدت معهم تحالفاً . فتركتهم بداية الأمر

حتى كثر عددهم وملأوا الجبال، تم صاروا يقتلون بعضهم بعضاً حتى قلّ عددهم. فاستدعى القائمقام بدري كبيرَ قاطعي الطرق وعينه ملكاً على الجبال. بحيث يتلقى الأوامر من السلطة. ويرى الكاتب أن فعل السلطة السياسية لا تختلف كثيراً عن فعل الأجرام الذي يمارسه قطاع الطرق واللصوص. جاء في الرواية: "شغل الدرك شيء، وشغل المجرمين شيء آخر لا أحد يتدخل في شغل الآخر، إلا في أحيان قليلة". كما جاء فيها أيضاً: "المَلكية والأجرام يتشابهان. مثلما في دولة واحدة لا يمكن أن يوجد ملكان فلا يمكن أن يوجد في جبل واحد مجرمان".

ومن جانب آخر فأن الرواية تعكس رؤية السياسيين الذين قاموا بترشيح أنفسهم للنيابة. منها أن السلطة أو الحكومة كانت تؤيد الكماليين الثوريين مثل السيد "برهان" المتطرف بكماليته، بينما نرى أن السلطة السياسية لا تؤيد شخصا أمثال "رسول حميدو" ذي التوجه الديني وتنعته بالرجعية، في حين نرى الكماليين تقدميين. ولكن الحقيقة أن هؤلاء الكماليين أنفسهم قد ملوا الوضع السياسي الراهن فنرى أحد المرشحين للنيابة مخاطباً "باشا زادة" (الشيخ سعيد العرياني) بعدما كان يهزأ من الجمهورية وأعياد الاستقلال ويقول: أصغ إلى الصوت. أسمع جيداً ماذا يقول الطبل. طز.. طز.. طز أليس كذلك؟ ألا يقول طز كلما نزلت عليه العصا. والآن أصغ إلى المزمار أسمع صوته جيداً. المزمار أيضاً يخرج صوت "ط ز ، ط ز. ثم يتساءل بعد ذلك عن صيرورة الطبل والمزمار آلتين موسيقيتين قوميتين ويقول: "هذا الشعب لا يستطيع أن يخرج صوته منذ قرون، عندما يحاول فتح فمه تنزل القبضة على رأسه. فماذا يستطيع أن يعمل؟ بحث وبحث فما وجد غير هذا الطبل والمزمار ليحكيا مكانه. وليقولا ما لا يستطيع قوله.

من ناحية أخرى فقد أدركت السلطة السياسية أهمية السلطة الدينية الممثلة بـ "الشيخ سعيد العرياني" وفاعليتها وتأثيرها الكبير في المجتمع السائد آنذاك. فنجد بعض الباحثين (فيروز أحمد) يرى بأن طبقة الفلاحين قد كانت مفتتة بالولاءات العرقية والدينية، فكان الكماليون يصلون إليهم عن طريق زعمائهم التقليدين: أي الأعيان المحليين ورجال الدين. فجاء في الرواية على لسان القائمقام بدري: "يا سيدي الشيخ عليكم أن تخدمونا ، ونحن نبذل ما في وسعنا ، نجاح السيد برهان بيدكم". وقد كان هذا سبب أن الشيخ بمجرد أن يقول لهم انتخبوا فلان فقط فسيكون هذا كافياً لنجاحه. كانت السياسة تتوسل بالدين لخدمة مصالحها، وتسعى نحو تحقيق أهدافها من خلاله. رأى النائب (المرشح للانتخابات) الشيخ "العرياني" في القرية فأيقن بأهميته في حملته الانتخابية، فراح يكنّ له الاحترام أمام القرويين، "وكأنه يريد أن يقول لهم، انظروا كم أحترم شيخكم". ليس هذا فقط إنما نراه يذهب ليصلي مع الشيخ حينما جاء وقت الصلاة. يقول الشيخ "العرياني": "عبر إلى الغرفة المجاورة. وكما أعرف أنه لن يصلي، لا أظن أنه يعرف كيف يصلي".

إضافة إلى ما سبق فإن الرواية تكشف عن عمليات القمع التي تقوم بها السلطة السياسية ضد المجتمع بشكل عام وضد الأجانب بشكل خاص. يقول "باشا زادة " المنتحل شخصية "أمن سياسي": "في تلك الأثناء كان قمع الشرطة للأجانب كبيراً [...] دع الأقليات جانباً، حتى لو كنت من الغالبية فماذا ستختلف؟ كان قمع الشرطة ثقيلاً على الجميع ولكن على الأقليات أثقل". مما سبق نرى أن صورة السلطة السياسية قد ظهرت في الرواية بشكل سلبي، دون أن يجد المجتمع لنفسه طريقاً ينفث فيه آلامه. ولعل قصة العلم التركي الذي وضعته المرأة اليهودية تحت

الفراش تشير إلى نوع من الانتقام الذي وجهته للسلطة السياسية. ولعل "باشا زادة" قد مارس معها الجنس فوق العلم ليشير إلى بعض الإهانة التي يوجهها للسلطة السياسية. فجاء في الرواية: "عندما نهضنا عن السرير قالت: كان العلم تحتنا ... انزعجت وقلت لها: هذا ممكن، لأنني تركي".

أما البنية الاجتماعية للمجتمع فقد تمثلت في تعبير الكاتب عن رؤيته لأفكار السلبية والاعتقادات الاجتماعية الخاطئة التي يعاني منها المجتمع، وانعكاس هذه الأفكار وتصويرها في الرواية. فالفن الروائي يرتبط عضويا بالوسط الاجتماعي، ويتصل بكل شرائحه ويصدر عن وعيه. فالرواية ألصق ما تكون بالمجتمع دون غيرها من الفنون.

منذ أن خرج "باشا زادة" من المدرسة العسكرية مطروداً قام بعمل "أمين لمستودع" في شركة بناء. وكانت هذه الشركة تسرق أموالاً من الدولة. فاكتشف "زادة" ذلك، وظن أن المدير سيكافئه ولكنه طرده من العمل. كان هذا العمل الذي يقوم به "زادة" صدمة كبيرة إذ لم يدرك حقيقة ما قام به إلا بعد سنوات طويلة كما يقول. إن هذه الحادثة تدل على أن هذا المجتمع الذي يعيش فيه "زادة" مجتمع قد فقد الكثير من المعايير والمثل التي تحكمه، فالصحيح فيه خاطئ والعكس صحيح أيضا. ومن وجهة نظر المجتمع فلا وجود لأمثال "باشا زادة" لأنه ليس أهلاً للعمل فيه. فهو من نظر "السيد الكبير" ليس ثقة حينما قال: "يلزمنا رجل ثقة". وهو لص في نظر "المتعهد" حينما قال: "لا يريد أن يشتغل عنده لصوص".

كانت تلك الحادثة نقطة تحول في حياة "باشا زادة" فدخل في سلسلة من الاحتيالات لم يكن له أي علاقة مسبقة بها. فكان يدخل فيها رغماً عنه، فنرى أن المجتمع هو من فرض عليه ذاك "الطريق الوحيد" وهو

طريق الاحتيال. ويعبرّ الحلم الذي كان "باشا زادة" يراه دائماً، عن هذه الفكرة بشكل دقيق. فالناس قد سدوا كل المداخل ولم يتركوا له إلا ثغره واحدة. وكلما أراد الخلاص دفعوه إلى الثغرة الوحيدة، وهي جب النار مع أنه لا يريد الدخول فيها. وقد تكررت هذه الفكرة في صفحات الرواية منذ بدايتها حتى نهايتها. وكل قصة حكاها كان سببها الأول المجتمع.

ومن الأمراض الاجتماعية التي يقوم الكاتب بتعريتها ونشرها مطولاً في قصة "الشيخ سعيد العرياني المنحدر من سلالة الرسول". حيث يؤكد على حالة الجهل وسيادة السلطة الدينية بمعتقداتها الخاطئة التي تتبنى الأساطير واللامعقول، كما تؤكد فاعلية هذه المعتقدات في المجتمع ومدى استجابته لها. فقد جاء في الرواية: "كان يتوافد عليّ المرضى والمهمومون من كل القرى المجاورة، ليحصلوا على أدعيتي بالخير [...] صار القرويون يقدسون حتى التراب الذي أدوس عليه، ويأخذونه ويستعملونه دواء لكل داء". فقد عمل المجتمع على جعل هذا الشيخ أسطورة، قالت امرأة: "هذا هو الذي رأيته في حلمي، نعم كان عرياناً مثل ما ولدته أمه". كان كل ما يقوم به الشيخ يعد مقدساً وعلوياً عندهم.

ولكن الأمر الذي فكر به "زادة " أن أحداً لم يسأله شيئاً من أين أتى بل صاروا يلفقون حوله القصص. وهنا أمر مهم تكشفه الرواية وهو أن المجتمع الذي يسوده الجهل والتخلف يفرز الأساطير والتفسيرات الغيبية للأحداث، ثم يصدقونا وتصبح لديهم اعتقادا جازما. إذ لم يسألوه كيف جاء؟ ومن أين جاء؟ لأنهم يعرفون كذبه وتلفيقه، فهُم من جعلوا منه شيخاً، كما ظهر ذلك في آخر قصة "العرياني": "قف يا مكو قف .. اليد التي ترتفع على الشيخ ستتحول حجر. آه يا شيخ الـ... ولاه ، أنا أعمل

الشيخ من أمثالك... ". وجاء أيضاً على لسان "العرياني": مسكتوني عارياً تماماً على قمة الجبل وجعلتموني شيخاً غصبا".

لم يكن إيمان هذا المجتمع، الذي يبدو بدائياً، بالشيخ وبقدراته الخارقة وبأفعاله وأقواله الخيرة دون سبب، كان السبب يكمن في أنه: "ليس عند إنسان هذه المنطقة طبيب ولا قابلة ولا دواء ولا عمل ولا نقود... عندما لا يكون شيء يقول لو كان عندي شيخ على الأقل". وجاء على لسان البيك: "من الممكن أن يعيش الناس هنا من دون خبز ولكنهم لا يستطيعون العيش دون شيخ". فهذا المجتمع الذي تتنازعه ثلاث سلطات: اقتصادية متمثلة في البيك، ودينية متمثلة في الشيخ، وسياسة متمثلة في الدرك، كانت السلطة الدينية أهم هذه السلطات على الإطلاق. لهذا سعت السلطة السياسية إلى عقد مصالحات معها _كما مر في حادثة النائب والشيخ_ لأنها تدرك أهمية الدين في المجتمع وقوته في توجيه الأفكار والسيطرة على العقول.

كما تتحدث الرواية عن حالة الكذب التي يعيش المجتمع بوجه عام. فالمجتمع خلق هذا الشيخ والمجتمع طرده. كما ظهر حب الكذب في قصة الشاب الألماني المسلم، فقد جاء: "لكنهم يريدون أن يؤمنوا بهذا التلفيق لأنهم يتمنون أن تكون الأحداث على النحو الذي يحكي عنه معلم اللغة الفرنسية. إنهم بحاجة إلى الاعتقاد بكذبة كهذه. وقد ظهرت هذه الفكرة أيضاً في أخبار الصحف والمجلات التي كانت تنشر أخبار "زادة" صاحب السوابق الشهير بصوره وقصصه. وقد كان الناس مهوّسون بالكذب، فكانت الجرائد تنفد بسرعة كبيرة من أيدي الباعة وكانت تجني على أموال كثيرة، وقد كان الخبر الواحد ينشر بأشكال مغايرة مختلفة عن بعضها البعض.

السخرية في الرواية

إن الملمح البارز في أسلوب هذه الرواية هو أسلوب السخرية. فما السخرية وما تجلياتها في الرواية؟ تعد الفكاهة ظاهرة عامة تجمع تحتها مجموعة من الظواهر الدالة عليها مثل الكوميديا، التهكم، السخرية، النكتة... الخ. وتعريف الفكاهة هي: تلك الخاصية المتعلقة بحدث أو نشاط أو موقف أو بتعبير خاص عن فكرة، والتي تستحضر الحّس المضحك أو الحّس الخاص المتعلق بإدراك التناقض في المعنى. أما السخرية فهي: نوع من التأليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائض الإنسانية. ويتم ذلك من خلال وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها، أو التقليل من قدرها، أو جعلها مثيرة للضحك وغيرها من الأساليب. والهدف هي محاولة التخلص من بعض الخصال والخصائص السلبية. وتعد السخرية من أهم أشكال الفكاهة وهدفها مهاجمة الوضع الراهن من الأخلاق السياسية. وهذا الوضع الراهن لا بد من أن يكون محصلة لممارسات عدة خاطئة. كما تنذر بأخطار ينبغي التحذير منها ويكون الأدب الساخر من إحدى علامات هذا التحذير.

ويعود استخدام كثير من الكتاب والفنانين إلى ضروب ومظاهر الفكاهة في أعمالهم إلى ما يلي: أنها تستخدم في مهاجمة السلطة بأشكالها كافة السياسية والدينية وغيرها. كما تستخدم لتعزيز التماسك الاجتماعي بين الأفراد والجماعات. كما أنها تحدث نوعاً من التطهير الجماعي للانفعالات السلبية المتراكمة بفعل أحداث الحياة السياسية أو الاقتصادية السيئة. كما تكشف عن عيوب المجتمع السائدة.

وتعتمد رواية "الطريق الوحيد"، بشكل أساسي، على السخرية الانتقادية أسلوبا في بنائها الفني. فتعرض من خلالها عيوب المجتمع بكافة شرائحه وطبقاته المختلفة، من عيوب وأخطاء: ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ويتم ذلك من خلال تعرية هذا المجتمع بأسلوب هزلي مضحك.

ولعل أبرز مظاهر السخرية هو أن الرواية تحوي قصصا مشهدية، ساخرة تثير الضحك. ويتجلى أسلوب السخرية الانتقادية (الذي يعتمد على الحس النقدي بالدرجة الأولى) في مظاهر عدة. من هذه المظاهر الأسلوب الكاريكاتوري في الوصف. ففي بداية الرواية نجد أن الكاتب يعطي أسماء كثير من الشخصيات ألقاباً مثل: "رجائي المتذبذب"، "بدري الجربوع"، "رجب القنديل"، "كمال الجرس"، "فكرت المخلبط". وتصور هذه الألقاب المعطاة للشخصيات حالة ثقافية سائدة تتمثل في النظر إلى الآخر بشكل ما. كما تتخذ بعض الاسماء في الرواية البعد الساخر من خلال المفارقة بين اسم الشخصية ووصفاتها. ولا تخفى دلالة الأسماء الروائية، لأن الروائي يسعى عموما وهو يضع أسماء شخصياته "أن تكون متناسبة منسجمة بحيث تحقق للنص مقروئيته وللشخصية احتماليته ووجودها [....] وهذه المقصدية التي تضبط اختيار المؤلف لاسم الشخصية ليست دائما من دون خلفية نظرية". ومثال ذلك أسماء "باشا زادة" المتعددة: الشيخ العرياني، وغيرها.

ومثل ذلك السخرية الواضحة التي يرسمها الكاتب عند وصف الضابط "بشير الغوغوم" ذو الأصول العربية الذي يعمل في الجيش التركي منذ العصر العثماني. حيث تتبدى سخرية المجتمع المحيط به (طلاب

المدرسة العسكرية)، من طبيعة كلامه الذي بدت فيه اللغة التركية حسب اللفظ العربي.

ومن مظاهر السخرية ومثيراتها في الرواية الحوار المغلوط أو الفهم المغلوط من قبل الشخصيات التي يتعامل معها "زادة" دون قصده للوصول إلى هذا المستوى من الفهم المثير للسخرية. ومن تجليات هذا المظهر قصة "الشيخ سعيد العرياني المنحدر من سلالة الرسول". فجاء فيها بعد أن سلبه اللصوص كل شيء وتركوه في ملابسه الداخلية، ثم ابتلت ملابسه بسبب المطر: "تفقدت ألبستي فوجدتها ما نشفت. التففت بالفراء ونمت في الكهف. نمت بعد فترة قصيرة وأنا أفكر فيما وقع لي. استيقظت على أصوات عجيبة، ولكني تظاهرت بالنوم لكي أفهم ما يعملون. سمعت كلمات مثل: العرياني، شيخ ، حضرة الشيخ. [...] قالت امرأة: هذا هو الذي رايته في حلمي نعم كان عريانا مثل ما ولدته أمه، وجئت وقبلت يده [...] فقال الله يرضى عليك يا بنتي. اسمي الشيخ سعيد العرياني".

كما بدا ذلك واضحا في قصة "المسلم الألماني المنتحَل". حيث دخل على قرية لا يعرفها. وجد نفسه أمام المسجد، غسل وجهه بالماء، ثم نام من التعب. جاءه شخص وأراد إيقاظه فلم يرد عليه أو يكلمه، وبعد أن لح عليه قال يا بقصد دفعه "يا". جاء آخر وسأل عن هذا الغريب. فقال الأول إنه يقول "يا". فقال: إذا قال "يا" فإنه ألماني. وجاء آخر وقال ربما يريد الدخول في الإسلام لهذا هو في المسجد. جاء صاحب الدكان وقال: نعم رأيته في الصباح قد توضأ ودخل المسجد. وهكذا تمضي القصة بهذه السخرية دون قصد من "زادة".

شخصية "باشا زادة"

تعتبر شخصية "باشا زادة" من الشخصيات المهمة التي يجب الوقوف عندها طويلا لا سيما من الناحية السيكولوجية. وتذكرنا هذه الشخصية بشخية البطل في المقامات، ذلك الفن القصصي العربي، حيث شخصية زادة المحتال الذي همه المال والشهرة. كما تقترب هذه الرواية مع المقامات في بنائها الفني، حيث تنقسم إلى مشاهد قصصية كل واحدة أشبه بمقامة، ترتبط فيما بينها برابط خفي.

بداية، تنتمي شخصية "باشا زادة" إلى عائلة فقيرة. يقول كان والدي كاتباً عسكريا [...] كان مسناً [...] وكنا نحن سبعة أخوة وأنا أكبرهم [...] كان والدي المسكين في كل رسالة يكتب لي سأرسل لك يا بني ليرتين ونصف في أول الشهر القادم ولكن الليرتين والنصف لا تصلان في السنة إلا مرة أو مرتين، كانت والدتي قد وهبت حياتها كلها لأولادها. وهي أمراه مريضة وضعيفة". ويتضح سابقا البيئة التي نشأ فيها زادة، فعائلته فقيرة معدمة، أبوه كاتب فقير وأمه ضعيفة تقضي وقتها في تربية الأولاد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد "باشا زادة" منذ بداية الرواية أي خروجه من المدرسة العسكرية كأنه مصاب بهوس "المال والثراء" كما يقول علماء التحليل النفسي. جاء في الرواية: "كان في داخلي هوس امتلاك المدينة شوارعها وساحاتها. وقد ظل هذا الشعور مسيطراً عليه بشكل دائم وكلما خرج من السجن كان يعزم أن يكون غنياً، ولم يسقط من اليأس أو اللامبالاة.

ومن الناحية السيكولوجية يرى العلماء أن المال يحمل العديد من المعاني والرموز السيكولوجية، وقد كانت هذه المعاني مفقودة عند "زادة"، لذا نراه يسعى إلى المال من أجل تحقيقها. فقد كان فقيراً كما مرّ، كما أن طرده من المدرسة قد ولّد لديه شعوراً بالانسحاق. ومن هذه المعاني التي يحملها المال: الإحساس بالأمن، فالمال يمثل رمزاً للوقاية والحماية من الظروف المحيطة، كما يعد معادلاً للأمن والإحساس بالثقة والكفاءة، وقلة المال تؤدي للشعور بالاغتراب والتوتر وعدم الرضا عن الحياة؛ كما أن المال يعطي شعوراً بالقوة جنباً الكثير قوة المال قوة مطلقة؛ كما يعطي الإحساس بالحرية من الضغوط والقيود.

وترجع أسباب وقوع "زادة" في سلسلة من الأعمال السيئة إلى المجتمع، وقد صرح هو بذلك من غير موضع. بداية وبعد خروجه من السجن نراه شخصية تتصف بالأمانة والنزاهة عندما عمل "أمين مستودع". فقد ضبط عملية الاحتيال التي قام بها "المتعهد" و"السيد الكبير" على الحكومة. يقول "زادة" بعد خروجه من السجن وبحث عن عمل: "كنت سأعمل، كنت على استعداد لأعمل في أي مجال، كانت تنبعث في عقلي أولئك الذين صاروا مليونيرات وقد بدأوا من الصفر".

يرى "زادة" أن كل ما قام به في عمليات احتيال "لم يقدم على أحدها إرادياً. فقد دُفع بالقوة إلى عمليات الاحتيال تلك دون إرادته. والمذنب ليس هو بل المجتمع، لأن كافة الطرق غلّقت في وجهه، ولم يبق أمامه إلا طريق وحيد مفتوح". فلم يكن أحد يصدق ببراءته وأنه سقط في السجن دون ذنب. فيرى "زادة" أن المجتمع هو الذي صنع منه محتالاً حتى حاز على شهرة كبيرة وخصوصاً عندما لقّب بـ "باشا زادة"، فظل هذا اللقب معه في كل عمليات الاحتيال. وسبب هذه الشهرة من وجهة نظرة

وإعجاب المجتمع به هو التناقض بين "الباشا زادية" والاحتيال. ويعود السبب في امتثال "زادة" لكل عمليات الاحتيال أنه كان يماشي محيطه ولم يحاول التزوير، فكلما خرج من السجن، كان يريد دائماً أن يعمل ويعيش ويصبح غنياً. وتأسيساً على ما سبق نقول إن المجتمع هو صانع الاحتيال وهو نفسه الضحية. فالضحية هو الذي يخلق ويشكل المحتالين. وذلك لأن "سلوك النصب والاحتيال كان يمكن إلا يقع لو أن الضحية لم يأخذ المبادرة في ارتكاب بعض الأعمال التي من شأنها أن تثير النصابين والمحتالين فالمصيدة لا تطارد الفأر".

وإذا ما دخلنا إلى شخصية "باشا زادة" وتعمقنا فيها أكثر نجد إنها شخصية دائمة الخوف والحساسية وظهر ذلك في مواقف عدة. كان "زادة" يخاف من الشرطة كما كان يخاف من السجن والوقوع فيه، ويخاف أيضاً من الصحفيين أكثر مما يخاف من الشرطة لأنهم هم الذين كانوا دائماً يسعون لتغيير الحقيقة وكتابتها على نحو المخادعة والكذب والتلفيق. فجاء في الرواية: "صار البيك يتمادى في حديثه ولكني لم أنبس بكلمة من خوفي". وأيضاً "عندما سمعت بمجيئه [بدري] خفت أيضاً، ونحن أصحاب السوابق نعيش دائماً هذا الخوف". وعلى النقيض من شخصية "باشا زادة" المحتال نجده ذو حساسية برغم ما تعرض له من الاهانات على مدى أيام السجن. فهو "لم يفقد إحساسه بالخجل، لديه احترام لنفسه. وتألمُه من عملية مسك الشرطة لرأسه] ...[دليل على إحساسه بالخجل، وعدم فقدان احترامه لشخصيته.

وحول الشخصية الحقيقية لـ"باشا زادة" نرى أنه كان يعاني من فقدان الذات فهو لا يعرف من هو على وجه التحديد، صرّح بذلك في بداية الرواية. يقول كل هذه السنوات، وأنا أعيش شخصيات مختلفة، والآن لا

استطيع إيجاد نفسي الحقيقية؟ لقد بقيت هويتي الحقيقية في الماضي البعيد في الماضي الذي لا يمكن تذكره. لو ناداني أحدهم من الخلف، أحمد أحمد، أو علي أو ولي أو بأي اسم آخر، سأظن أنه يناديني والتفت إليه". وعلى هذا فقد كان إغفال الكاتب لاسم الشخصية مقصوداً وعن وعي دقيق. إذ لم يعط الكاتب أسماً لشخصية "باشا زادة" ". لأنها قد اتخذت تشكيلات وأسماء وصفات عديدة ومختلفة.

لقد كان "زادة" يعيش صراعاً مع نفسه، وقد كان يعتقد بأنه شخصان متناقضان، كل منهما يختلف عن الآخر. يقول: "في أغلب الأحيان] ...[أشفق على نفسي وأشفق على نفسي وكأنني أشفق على شخص آخر. كأنني أصير شخصيتين. الأولى هي الشخصية التي يجب أن أكونها، والثانية هي الشخصية الحالية التي لم أرد أن أكونها أبداً ... وكذلك الإنسان الذي أتوق أن أكونه، أو يجب أن أكونه يشفق على الإنسان الحالي الذي صرته".

والاعتقاد الراجح أن "باشا زادة" لم يكن محتالاً بالمعنى السيكولوجي للاحتيال، فكل ما هنالك أنه قد وضع اللوم على المجتمع الذي دفعه للاحتيال، فكان دائماً يخدع نفسه بخديعة "الطريق الوحيد"؛ لذلك يقول في نهاية الرواية: "إذا قال الإنسان لا يوجد أمامي طريق آخر، أي إذا ربط كل الحلول بهذا الطريق الوحيد، هذا يعني أنه بدأ بالاحتيال على نفسه". وعندما أدرك هذا الأمر وهذه الفكرة عمل على التغير حيث يقول "إننا لسنا حجراً أو آلة". كما جاء: "سيطرت عليه فكرة تغيير نفسه بشخص آخر. ولن يحتال على نفسه بالطريق الوحيد". ولا بدّ هنا أن نعقد مقارنة سريعة بين "باشا زادة" الذي لم يكن محتالاً بالمفهوم السيكولوجي. (على الرغم من أنه كان محتالاً في عرف الناس والشرطة)، وبين "رجائي

المتذبذب" الذي كان محتالاً ولا تظهر عليه علامات الاحتيال من ناحية أخرى. "باشا زادة" لم يقم بعملية احتيال عن قصد في كل احتيالاته وإنما كانت بدافع من المجتمع. أما "رجائي" فأنه كان "مواطن شريف" بتعبير "زادة" نفسه، مع أن جرائم هذا الأخير لا تساوي شيً أمام جرائم "رجائي". كان "رجائي" شديد الاحترام للقوانين، وكان يحتال على الناس من حيث لا يدركون. ويقوم "زادة" نفسه بتلخيص شخصية "رجائي" قائلاً: إن رجائي لا يقوم بأعمال مشابهة لأنه من المولعين بالتعبير، كما أن يقوم بشبك الأعمال التي يقوم بها، ويعمل على إدخال أشخاص آخرين في أعماله المعقدة دون أن يعرفوا شيئاً. وأخيراً إنه كان يستمتع بالعمل الذي يقوم به.

وعلى هذا يعد "رجائي" شخصية محتالة سيكولوجيا. ويرى علم النفس، أن شخصية المال الخاصة بـ"الهو" هي التي تبحث عن اللذة وتحقيق الرغبات غير المشروعة التي يرفضها المجتمع مثل السرقة والاختلاس وهذه الشخصية لا تتمثل أدنى مستويات الإحباط وتحاول تجنبه بأي طريقة. أما "الأنا" فهو الجانب العقلاني المنطقي في الشخصية الذي يزن الأمور المالية طبقاً لقواعد المجتمع وقوانينه. أما "الأنا الأعلى" فهو الجانب الأخلاقي الذي يحكم على الأمور المالية من خلال المعايير الأخلاقية والدينية والاجتماعية. فشخصية "رجائي" تمثل طغيان شخصية "الهو" الباحثة عن اللذة التي لا تتحمل أدنى إحباط. ومما يؤكد هذا انتحار "رجائي" الذي كان سببه بسيط، حينما قبضته الشرطة ولأول مرة بجرم صغير "وهو حيازة دولارات". وقد بين "زادة" السبب في انتحار رجائي قائلاً: "كان يعتقد أنه ماكر وذكي إلى حد أنه يقوى على ارتكاب كافة أنواع الجرائم دون أن يقبض عليه. عند أول اعتقال شنق نفسه بحزام بنطاله

في قبو المخفر". كما يقول: "ولم يكن انتحاره بسبب فقدان كرامته بل بسبب فقدان ثقته بنفسه". ففي كل احتيالاته كان يعمل على إثبات تفوقه لنفسه لأنه لا يثق بها.

في حين نجد "زادة" "لم يفقد ثقته بنفسه بالرغم من كل ما وقع له في بلاء". بل كان يحترم نفسه ويثق بها وكان ذو حساسية، وفي كل مرة بعد خروجه من السجن يبدأ من جديد باحثاً عن طريق المال أو العيش بكرامة في قرية أو مدينة بعيدة عن المجتمع. ولكن السؤال المطروح إذا لم يكن "زادة" محتالاً بالمعنى الحقيقي للكلمة ولا إنساناً سوياً فماذا يمكن أن يكون؟ إن الاعتقاد الراجح أن شخصيته لم تكتمل ملامحها كما صرّح في بداية الرواية فقال: أنا لم أعش ذاتي منذ سنوات طويلة. عشت دائماً بشخصيات الآخرين. ذاتي الحقيقية غير موجودة صرت لا أستطيع إيجاد نفسي". كما أشارت نهاية الرواية إلى ذات المضمون فقد جاء فيها: "كأنني لم أكمل الجملة عن قصد، كما لم تكتمل حياة "باشا زادة" في الحقيقة إن كل حياة تنتهي بعمل لم يكتمل، وقول لم يقل".

المصدر

نيسين، عزيز: الطريق الوحيد، تر: عبد القادر عبد اللي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٧. (صدرت بالتركية عام ١٩٧٨).

المراجع

أحمد، فيروز: الاقتصاد السياسي للكمالية، في: تركيا بين الصفوة والبيروقراطية والحكم العسكري، نوبار هوفسبيان وفيروز أحمد، تر: سامي الرزاز، ومجدي عبد الهادي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥.

بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشكل)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

بدر، عبد المحسن طه: حول الأديب والواقع، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨١.

الحاج مخلف، شاكر: الأعمدة والفضاء: دراسة نقدية في الأدب والمسرح التركي الحديث ، دار علاء الدين دمشق ، ١٩٩٨.

زيدان، أكرم: سيكولوجية المال: هوس الثراء وأمراض الثروة، ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ٣٥١، ٢٠٠٨.

عبد الحميد، شاكر: الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ٢٨٩، ٢٠٠٣.

عبد اللي، عبد القادر (اختيار وترجمة): مختارات من القصة التركية الساخرة، الينابيع للنشر والتوزيع، دمشق، ط ١ ، ١٩٩٢.

لحمداني، حميد: الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي: دراسة بنيوية تكوينية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥.

ماكوري، جون: الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٦.